أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة «ندوات ومحاضرات»

محاضرات الأكاديمية

1407 — 1403
1987 — 1983

الانتماء وقضايانا العربية(*)

أحمد صدقي الدجاني

أعرب عن سعادتي بهذا اللقاء، وأحمل لأهلنا في المغرب تحيات أهلهم في المشرق، وأبارك لكم بالعام الهجري الجديد سائلا الله سبحانه أن يوفقنا فيه إلى القيام بواجباتنا تجاه أنفسنا وتجاه العالمين، وأعبر كواحد من أبناء فلسطين عن استشعاري قوة الأواصر التي تربط بين هذا المغرب المرابط وبين فلسطين بقدسها ومقدساتها، وأشكر أكاديمية المملكة المغربية على كريم دعوتها، وأشيد بالدور الذي تقوم به كمنارة للعلم والمعرفة بتوجيه مؤسسها وراعيها الحسن الثاني حفظه الله ورعاه، واستفتح بالذي هو خير.

القضايا التي نجد أنفسنا في مواجهتها ونحن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري وعلى مشارف القرن الحادي والعشرين كثيرة ومتنوعة يتصل بعضها بالعالم الذي نعيش فيه مع أمم وحضارات أخرى وقد تحقق التواصل بين أجزائه بصورة لم يعرفها الإنسان من قبل بفعل ثورة الإتصال. كما يتصل بعضها الآخر بنا في أوطاننا ومجتمعاتنا. وقد ألحت علينا بعض هذه القضايا بفعل التغير السريع الذي شهده عالمنا منذ الحرب العالمية الثانية وهو يعيش ثورة العلم التقني وثورة التحرير.

(*) ألقيت هذه المحاضرة سنة 1985.

كيف نرى عالمنا ؟ ما هي صورته وتقسيماته ؟ كيف نواجه مشكلاته ونستجيب للتحديات التي تجابهه ؟

كيف نحدد انتماءنا فيه ؟ ما هي هويتنا التي ندخل بها إليه ونحتل موقعنا في ساحته ؟

* * *

إن نظرة على هذا العالم الذي يوصف بأنه متغير ترينا كيف تبرز قضية الانتماء فيه على عدة صعد، وفي مجتمعات كثيرة.

نراها على صعيد القطر الواحد في صلب موضوع الوحدة الوطنية لشعب تتعدد فيه الأجناس أو الأديان أو المذاهب أو الثقافات.

ونراها على صعيد الوطن القومي في موضوع الوحدة القومية لأنه يضُم مجموعة شعوب فيها ذلك التعدد.

ونراها على صعيد الدائرة الحضارية الواحدة التي تربط عدة أمم فيها برباط العقيدة والحضارة في موضوع الوحدة الحضارية بين تلك الأمم.

ونراها على صعيد الدائرة العالمية الواحدة في موضوع التعايش والتعاون والتكافل بين مختلف الأمم والحضارات.

نراها على صعيد الفرد، ونراها على صعيد المجتمع، ونلاحظ ملاحظة بريجنسكي في كتابه «بين عصرين» من أن ثورة الاتصال في عالمنا قوّت الإحساس بالذات والتميز لدى كل مجموعة بشرية مهما صغرت.

ويثور السؤال هل يتحدد الانتماء بالنسبة إلى المجتمع أم بالنسبة إلى الدولة أم بالنسبة إلى القومية أم بالنسبة إلى الدين أو العقيدة أم بالنسبة إلى الحضارة أم بالنسبة إلى العالم ؟ هل يتحدد بالنسبة إلى بعض هذه المحددات أم يتحدد بالنسبة إليها مجتمعة ؟ وما هي الهوية في كل الأحوال ؟

ويلفت النظر أن عصرنا شهد طرح مصطلح «اللامنتمي» وشيوعه ليعبر بشكل أو بآخر عن بروز هذه القضية فيه.

إن قضية الانتماء بارزة اليوم بقوة في أمتنا العربية التي تعيش طور انبعاث

حضاري في هذا العصر. وحين ننظر في أسباب هذا البروز نجدها عدة.

ـــ لقد تعرضت أمتنا في القرنين الأخيرين لغزو استعماري غربي استهدفت جميع جوانب حياتها. وكان فيه غزو فكري ركز على سلب الهوية فبرزت القضية.

ـــ وتغيرت الخريطة السياسية لوطننا العربي الكبير في هذه الحقبة وأصاب التغير أجزاء هامة فيه. وقامت على هذه الأجزاء دول حديثة فطرحت مفاهيم الجنسية القطرية والسيادة والاستقلالية بمدلولاتها الغربية، وبرزت القضية.

ـــ وحدثت الثورة العلمية التقنية، فدخلنا مع أمم أخرى عصرا جديدا، فعلت ثورة الاتصال فيه فعلها على صعيد الاحتكاك والتفاعل الحضاري، واشتد بفعلها نزوع الشعوب إلى الوحدة وإلى التنوع في وقت واحد، فبرزت القضية.

ألح السؤال وسط هذا كله على صعيد الفرد وعلى صعيد المجتمع كيف يكون التوفيق بين الانتماء للموطن والانتماء للوطن الكبير والانتماء للعقيدة والانفتاح على العالم ؟

واضح أن هذه القضية تفعل فعلها في حياتنا. وقد أسهم الخلاف الناشب حولها والغموض الذي يحيط بها عند البعض في تفاقم بعض مشكلاتنا. نرى هذا بوضوح في مواجهتنا للغزوة الصهيونية العنصرية، وفي أزمة لبنان التي اشتدت خلال العقد الماضي. وقد لاحظنا كيف دار الحوار في مؤتمر الوفاق اللبناني أول ما دار حول انتماء لبنان وهويته، ونرى هذا بوضوح في علاقات الدول العربية على الصعيد الثنائي، وفي معالجتنا لقضية التربية في دولنا، ولقضية التفاعل الحضاري في مجتمعنا.

يلفت النظر أن الخلاف الناشب حول هذه القضية والغموض الذي يحيط بها لا يقتصر على شريحة دون أخرى في دولنا، وإن رأيناه في شريحة المثقفين وشريحة السلطة أشد. وذلك راجع إلى طبيعة القضية وإلى الأسباب التي تفاعلت في تكوينها. ونضرب أمثلة.

* لقد دار حوار غني حول قضية الانتماء في ندوة « الجامعة العربية الواقع والطموح» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بتونس في ربيع 1982. ويومها استخدم بعض المتحدثين مصطلح تعدد الهويات وهو يشير إلى هوية قطريّة تنسب إلى هذه الدولة أو تلك وأخرى قومية تنسب للعروبة وثالثة دينية إسلامية،

ورأى هذا البعض تصادما قائما بين هذه الهويات. وقد أثار هذا الطرح سؤالاً هو : هل يمكن أن تتعدد الهوية في الذات الواحدة ؟

* أصدر سمو الأمير الحسن بن طلال كتابه «السعي نحو السلام». وفي هذا الكتاب نقرأ «والفصول الأربعة فيه هي محاولة للإجابة عن الأسئلة التي تعنّ للعرب جميعا وهي من أنا ؟ ولمن أنتمي ؟ وكيف أواجه المستقبل ؟»

ونقرأ «يبدو العربي في العالم الحديث كأنه مخلوق عاجز عن معرفة هويته وسط الأجناس والأمم الأخرى».

ونقرأ «إن العربي اليوم مواطن في كثير من الدول، وكلها حديثة عهد بالنشوء. ولكنه يؤثر أن يتعقب أصوله ونسبه في الماضي إلى الحد الذي يكفيه لإقرار منزلته في القاعدة المشتركة للانتماءات القبلية، التي تتخطى التخوم السياسية الفاصلة بينه وبين أخوته، وهو يعي عروبته، بقدر ما يجل إسلامه، ويؤدي الواجبات الدينية التي يفرضها عليه». والكتاب يستحق قراءة متأنية.

* أصدر الأديب الكبير نجيب محفوظ مؤخرا كتابه «أمام العرش» الذي حاور فيه رجال مصر من مينا إلى أنور السادات. ويقف المرء طويلا عند تحديد الكتاب لمن هو المصري ونظرته إلى الانتماء لمصر في هذا الكتاب.

* وفي مقالة حديثة للفيلسوف العربي زكي نجيب محمود عنوانها «قضية تستحق النظر» عبر الكاتب بصدق عن القلق الذي تثيره قضية «الذات المصرية» عند من يريد لنفسه التيقن والدقة، وذلك بسبب المفاهيم الثلاثة المقترنة بها وهي المصرية والعروبة والإسلام.

والحق أن مناقشات جيلنا اتصلت منذ العقد السادس في الخمسينات من هذا القرن حول هذه القضية في أجزاء مختلفة من وطننا العربي، واحتدمت حتى توصل بعضنا إلى رأي واضح محدد فيها اطمأن إليه.

* * *

ما هو الانتماء ؟ وما هي الهوية ؟

البحث في القضية يستوجب بداية تحديد المصطلح المستخدم. ونبدأ بالتحديد

اللغوي ونستفتي لسان العرب.

الانتماء لغة هو الانتساب. وفلان ينمي إلى حسب وينتمي إليه. وقد ورد في الحديث الشريف : «انتمى إلى غير مواليه» أي انتسب. وأصل الكلمة الثلاثي هو نمى بمعنى زاد وكثر، ونميته إلى أبيه «عزوته ونسبته» وانتمى هو إليه انتسب. وانتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النسب. وكل ارتفاع انتماء. والانتماء إلى شيء أو مكان أو شخص أو فكرة أو عقيدة هو الانتساب إليه أو إليها. والنسب كما ورد في التهذيب يكون بالآباء، ويكون إلى البلاد، ويكون في الصناعة ويقال انتسب الرجل انتساباً، واستنسب. وهكذا نجد أن الانتساب يكون للقوم وللمكان الموطن وللمهنة.

والهوية من الهو وهي تعني «حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية». وهوية الشيء عند الفارابي هو عينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد الذي لا يقع فيه اشتراك.

وننظر في ماهية الانتماء فنجد أن المرء يولد لأبوين من قوم في مكان بعينه، فينتمي إلى القوم وإلى الموطن. وينشأ ويترعرع متكلما لغة قومه متمثلا ثقافتهم، فينتمي إلى دائرة أوسع. ويدين بدينهم أو يهتدي إلى دين فيجمعه هذا الدين بآخرين مؤمنين يعيش معهم في ظل عقيدة واحدة وحضارة واحدة. ويدرك موقعه من العالم فيرتبط بالعالمين.

طبيعي إذن أن ينتمي هذا المرء إلى دائرة وطنية حيث الأهل الأقربون والموطن، وأن ينتمي في الوقت نفسه إلى دائرة قومية تجمع داخلها مجموعة أقطار تسكنها أقوام وشعوب تنتسب إلى أمة واحدة، ثم هو ينتمي إلى دائرة حضارية يغلب عليها دين واحد وتجمع داخلها أمما عاشت في ظل حضارة واحدة. وأخيرا هو ينتمي كإنسان يعيش على ظهر هذا الكوكب إلى الدائرة العالمية التي تضم فيها الأناسي جميعا.

ينسب الواحد منا إلى هذه الدوائر الأربع، فهو مغربي أو فلسطيني أو كويتي... وهو عربي في جميع هذه البلاد، وهو مسلم أو نصراني كتابي ابن للحضارة العربية الإسلامية، وهو إنساني عالمي من العالمين. وواضح هنا أن الانتماء

في كل دائرة يحمل مدلولا خاصا.

كيف تبدو الصلة بين هذه الدوائر على صعيد الانتماء ؟

وكيف تتحدد الهوية التي تمثل الوجود المتفرد ؟

يلفت النظر في الاجتماع الإنساني أن الانتماء إلى الدائرة العالمية يتحقق من خلال هويات تحددت. فالله سبحانه خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، وبلبل ألسنتهم فاختلفت وأصبح لكل شعب لغة. فتحديد هوية فرد أو مجتمع تتم قبل ولوج هذه الدائرة وبها يكون الولوج. والنزوع إلى الاتصال بالعالمين أصيل وتحقيق التعارف وصولا إلى التعاون غاية إنسانية. وإن نظرة على العلاقات العالمية اليوم ترينا أنها تقوم كما قامت دوما بين حضارات وأمم وشعوب ودول.

إن الانتماء إلى الموطن والقوم عامل أساسي في تحديد الهوية تماما كما أن الانتماء إلى عقيدة عامل أساسي آخر. وبتفاعل هذين العاملين يتضح الوجود المتفرد. وهكذا يتكامل الانتماء إلى المكان وإلى القوم وإلى العقيدة ويتفاعل فيثمر الهوية، على صعيد الفرد وعلى صعيد المجتمع، وتبرز هذه الهوية الشخصية التي تعبر عنها بلغة القوم وثقافة تنسب إليهم وبحضارة يشيدونها.

الحضارة وفق المعادلة التي بسطها مالك بن نبي هي نتاج تفاعل الإنسان مع التراب مع الزمن بدافع من دين يدين به هذا الإنسان. والانتماء إلى هذه الحضارة التي يسهم الفرد أو المجتمع في تشييدها هو تعبير صادق عن الهوية، ومن خلال هذا الانتماء يأخذ التعبير مداه الأوسع. وقد تعددت الحضارات الإنسانية في تاريخنا الإنساني وعبرت عن هويات واضحة، واحتكت وتفاعلت على صعيد الدائرة العالمية.

الحضارة العربية الإسلامية هي إحدى هذه الحضارات. وهي عربية اللسان، وعقيدتها التي وفرت النظرة الكلية هي دين الإسلام. وقد أسهم في تشييدها العرب مع شعوب أخرى دانت بالإسلام. وتمثلت هذه الحضارة حضارات المنطقة التي سبقتها في الظهور، وانفتحت على حضارات العالم القديم.

في ظل هذه الحضارة كانت الهوية واضحة على صعيد الفرد وصعيد المجتمع. وكان لسان حال الفرد فيها وهو يسأل عن نسبه قول ذلك الشاعر :

قد ورثت المجد عن خير أب وأخذت الدين عن خير نبي

وأبوه كسرى ونبيه محمد ﷺ، واللغة التي يعبر بها عن هويته وانتمائه هي العربية لغة تلك الحضارة. ولقد حرص أبو الريحان البيروني على الكتابة بالعربية وهو ليس من أصل عربي وشرح أسباب ذلك في كلمة خالدة له «ديننا والدولة عربيان.... والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية» وهذا شأن ابن سينا والفارابي وكثيرين آخرين. فالهوية هنا تحددت من خلال القوم والمعتقد، ولغة الحضارة التي تعبر عنها. وحق لحاملها أن يعتز بأبيه من أي قوم كان دونما استعلاء، ويعتز بدينه ويعتز بلغة قرآنه وحضارته.

توافر هذا الوضوح للهوية في وطننا قرونا طويلة. ولم تلبث أن برزت قضية الانتماء والهوية بفعل الأسباب التي ذكرناها.. الغزو الاستعماري الغربي، وتغير الخريطة السياسية وقيام الدول العربية الحديثة، والتغير المتسارع في عالمنا المعاصر.

حدث بفعل هذه المتغيرات أن اصطنع تناقض بين العوامل التي تكون الهوية، وبين دوائر الانتماء التي تدخل فيها. وقد استجابت أمتنا لتحدي الغزو الاستعماري الأوروبي بالتمسك بعروبتها وإسلامها، وشهد وطننا بروز ظاهرة إحياء روحي وظاهرة إحياء قومي، عبرت حركة اليقظة الحديثة عنهما وقرنت بوضوح بين العروبة والإسلام. ثم برز الخلل في فهم العلاقة بين العروبة والإسلام على صعيد قطاع من حملة الفكرة القومية وعلى صعيد قطاع من دعاة الفكرة الإسلامية. وقد ولدت الفكرة القومية في القرن الماضي بفعل عوامل تفاعلت في تكوينها. ولم يكن ظهور هذه العوامل بدرجة واحدة في مختلف مناطق الوطن العربي، الأمر الذي أدى إلى تفاوت ملحوظ في التعبير عن هذه الفكرة في تلك المناطق. وكان وضوح الدعوة القومية على أشده في بلاد الشام حيث برز تحدي الضعف الداخلي للدولة العثمانية الحاكمة، وبرز تحدي الاستعمار الغربي والصهيونية كجزء منه وانتشار الحركات القومية في أوروبا وظهور حركة القومية التركية في الدولة العثمانية.

وقد تأثرت الفكرة القومية هناك بالتجارب القومية الأوروبية وموقفها من الدين وتأثرت بوجود عرب لا يدينون بالإسلام. ومهد ذلك كله لبروز الخلل في فهم العلاقة بين العروبة والإسلام.

تمثل هذا الخلل في وضع كل من الفكرتين في مواجهة الأخرى، وهما في الأصل متكاملتان. وبرز خلل آخر حين نشط دعاة الوحدة العربية فعمد بعضهم إلى إبراز الدائرة القومية على حساب الموطن والعقيدة والحضارة، وغالى بعضهم في ذلك. الأمر الذي أثار حمية الوطنيين المعتزين بمواطنهم، وأثار حمية المتدينين المعتزين بعقيدتهم. وكان من أمثلة اصطناع التناقض وضع الانتماء إلى العروبة قبل الانتماء إلى الموطن أو إلى الدين في الذات الواحدة التي انصهرت فيها عوامل الانتماء فأصبحت هويتها جماع ذلك كله.

حين اصطنع هذا التناقص جرت محاولات تلمس دلائل تدل عليه في تاريخنا القديم فرأينا التأكيد على تاريخ المنطقة البعيد السابق للإسلام أو للعروبة الجاهلية والقفز فوق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لإثبات الانتماء القطري وتغليبه. ورأينا التأكيد على جوانب الاضاءة في هذا التاريخ للرد على دعاة تغليب الانتماء الديني حين يؤكدون على فضل العقيدة وينكرون ما سبقها. ولقد شرح زكي نجيب محمود في مقاله قضية تستحق النظر كيف يعتز المصري المسلم بميراثه الإسلامي، ولكنه يقلق لأن هذا الاعتزاز قد لا ينسجم مع الاعتزاز بالحضارة المصرية القديمة التي شيدها الفرعون الذي ورد في القرآن أربع وسبعون آية عنه، وفي كل آية منها إشارة إلى ضلالة من ضلالاته». وقد يحدث مثل هذا القلق لعربي مسلم حين يقرأ ما ورد في القرآن عن أجداده عرب الجاهلية، إن هو نظر إلى الأمر نظرة عصبية. ويقينا فإن هذا القلق يزول في الحالين حين يكون النظر إلى العمل، فالله سبحانه ينعي على المفسدين في الأرض الضالين المضلين في القوم وليس على كل القوم. ولا يشفع لهؤلاء انتسابهم.

حين اصطنع هذا التناقض ثارت في المشرق مسألة مكان الاخوة النصارى من الدائرة الإسلامية، حيث النصراني عربي لا يدين بالإسلام، والحق أن دائرة الحضارة العربية الإسلامية تضم كل الاخوة النصارى العرب الذين أسهموا في بنائها وانتموا إلى ثقافتها وتمسكوا بقيمها وانتسبوا إليها. وثارت أيضا مسألة المسلم غير العربي أصلا، وكيفية النظر إلى انتسابه للدائرة العربية. والحق أن الانتساب هنا تحقق من خلال عروبة اللسان ومعرفة لغة القرآن والإسهام في بناء الحضارة العربية الإسلامية.

الحاجة ملحة اليوم لتكثيف الجهد على صعيد الفكر بغية إعادة الوضوح إلى هويتنا، وإدراك الصلة بين دوائر الانتماء فيها والوفاء بحق كل دائرة. وهي حاجة تلح لمعالجة مشكلات تبرز داخل الدولة الواحدة، ومشكلات تبرز في العلاقات بين الدول العربية وبينها وبين جيرانها، ومشكلات تبرز في علاقاتنا بالحضارات الأخرى.

لقد حدث أن استشعر هذه الحاجة جيل من مفكرينا حين اشتد الغزو الفكري الذي استهدف سلب الهوية في أجزاء من وطننا ابتليت باستعمار الغربي الاستيطاني. فقام هذا الجيل بمهمته وكان وعي الانتماء ووضوح الهوية العامل الرئيسي في كسب معركة التحرير.

لنا هنا أن نستشهد بما فعله الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء. ونقف أمام ذلك البيت الشعري الجامع:

شعب الجزائر مسلـم ٭وإلى العروبة ينـتسب

ويقول من عاصر تلك الحقبة وأرخ لها إن ابن باديس آمن بثلاثة لا تعرف التجزئة ولا تكتمل الصورة إلا بها. ولم يهدأ روعه حتى ألحقها ببعضها ووصلها بلحمة لا تنفصم، وهي الجزائر الموطن والعروبة والإسلام. وكان واضحا عند ابن باديس أن العروبة هي اللسان وهي فوق السلالات وهو لم ينكر قط ما أثبته التاريخ من أصل مازيغي للجزائر. وقد حدد الوطن العربي من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي.

إن وضوح هويتنا بالانتماء إلى دوائر الموطن واللسان والعقيدة والحضارة ينهي أي تناقض مصطنع بين هذه الدوائر، ويعبر عن نظرة علمية للواقع القائم ولا يحاول القفز فوق أية حقيقة فيه. وهو يفسح المجال لبناء وحدة وطنية قوية على صعيد الموطن الواحد تنطلق من الاعتراف بالتنوع والاعتزاز بوجوده وصولا إلى الوحدة. ويحث هذا المفهوم على الولاء للموطن ويغطي المشاعر الوطنية حقها ولكنه لا يقبل التعصب المذموم لها، ولا الانغلاق. وهو يوحي بأن هذا الولاء يتوجب ربط الموطن بالوطن الكبير لأنه يقوى به. وحين يحث هذا المفهوم على الولاء للوطن الكبير ويعطي المشاعر القومية حقها فإنه لا يقبل المساس بروابط أخوة العقيدة،

ولا بالانغلاق عن الدوائر الحضارية. وما أحوجنا إلى أن يتحقق الانسجام بين وطننا العربي الكبير وبين عمقه المتمثل في أوطان أمم أخرى تجمعنا معها الدائرة الحضارية.

إن وضوح الهوية يحقق إنسانية الإنسان، ويمكنه من إطلاق طاقاته من التفكر وممارسة التفكير، فتبرز لديه إرادة الفعل ويحكمه منطق الفعل وتتوافر له القدرة على الفعل. ويثمر ذلك كله تبلور «الذات المستقلة» والثقة بالنفس، والانتماء لهذه الذات فتتجسد الأصالة.

تتميز الذات عن الغير، كما يتميز الأنا عن الهو. ولا يمكن للفرد الذي تبلورت ذاته أن يكون تابعا، ولا يمكن له قبل ذلك أن يكون قابلا للتبعية، ولا يمكن له أن ينسب إلا لذاته. فهو هو وليس تابع هذا أو تابع ذاك. وما يصدق على الفرد هنا يصدق بصورة أقوى على المجتمع.

تتعامل هذه الذات مع الآخرين تعامل الند، وهي تعرف نفسها منطلقة من نفسها. وما يصدر من أفكار عنها نابع منها. وحين تتعامل مع الآخرين تعبر عن ذاتها وتتواصل معهم من خلال هذه الذات، ولديها الإرادة والقدرة على تعامل الأنداد وتبادل التأثير. وهي في حصن منيع بسبب ما تتصف به من إمكانية فقدانها ذاتيتها. وهي تعتبر أن أكبر سبة تلحق بها هي أن تنسب للغير.

إن وضوح الهوية هو ما يميز كل نهضة حدثت، نراه ــ بوضوح ــ عند إنسان النهضة والأمثلة كثيرة. والعكس صحيح أيضا فأولئك الذين سلبت هويتهم ذوات تابعة تفتقد الأصالة وتدور في فلك الآخرين، ولا تنتسب إلا مقترنة بهم. ومن مظاهر تبعيتهم أنهم لا يستطيعون تصور الذات المستقلة والأصالة في الانتماء. وقد وضحت فيهم القابلية للتبعية. وهم يكثرون في فترات الانحطاط وتتجلى فيهم علة التبعية النفسية.

إن هذا المفهوم لهويتنا هو الذي يمكننا من الانطلاق إلى حمل رسالة الأخوة والتعاون مع العالمين، والتعامل مع أبناء الحضارات الأخرى على مستوى الندية الذي هو الشرط اللازم لنجاح تفاعل الحضارات، والإسهام في صنع حضارة الإنسان في عصرنا.

* * *

والآن .. كيف لوضوح هويتنا أن يظهر في معالجتنا قضايا عربية ملحة تشغلنا ؟

لنا أن نعرض قضايا مصيرية ثلاث كل منها له صعيده ومرتبط بهدف بلورة تاريخنا. قضية الصراع العربي الصهيوني على صعيد الغزو الاستعماري لوطننا وهدفنا فيها هو التحرير. وقضية التعامل مع الحضارة الغربية على صعيد التفاعل الحضاري وهدفنا فيها التقدم، وقضية إيجاد الحقائق الوحدوية في وطننا الكبير على صعيد بناء وحدته وهدفنا فيها التوحيد بين يدي تناولنا لقضية الصراع العربي الصهيوني نستحضر عبراً تاريخية ونقول لقد عرفت أمتنا في تاريخها الغزو الأجنبي لوطنها مرات. وفي كل مرة استهدفت الغزوات قلب الوطن فلسطين وبلاد الشام عموما كانت تبرز قضية الهوية والانتماء بوضوح عند استجماع قوى الأمة لطرد الغزاة وتحرير الأرض.

برزت هذه القضية بوضوح إبان الغزو الفرنجي، وفعلت فعلها في الوصول إلى الصحوة التي بدت ملامحها بعد قرن من الحروب المتصلة. ويومها أمكن الانتصار في حطين وحدث التحول في الخط البياني للغزو. وقد لفت النظر أن جل أخوتنا النصارى العرب عبروا عن انتمائهم لأمتهم وحضارتهم وعقيدتهم بالاسهام في مواجهة الغزاة الذين ألبسوا غزوتهم ثوبا دينيا.

وبرزت القضية بوضوح أيضا إبان الغزو المغولي والتتري، وحين أراد بعض الغزاة التتار ممن كانوا يدينون بالإسلام استغلال هذا الانتماء لغرض هيمنتهم، تصدى لهم العز بن عبد السلام موضحا الهوية والانتماء لمن التبس عليه الأمر من العامة، وداعيا إلى مقاتلة الفئة الباغية، وقائلا للناس إن رأيتموني أقاتل في الجهة الأخرى فقاتلوني. وفعل الوضوح فعله وحدثت الصحوة التي أوصلت إلى صد الغزاة وتحرير الأرض.

دخل الصراع العربي الصهيوني قرنه الثاني، ومر بمراحل عدة شهدت غزوا صهيونيا أوروبيا ومقاومة عربية فلسطينية وحروبا عربية إسرائيلية. ولقد عبرت الغزوة الصهيونية في مسارها على مدى قرن مراحل التسلل والتغلغل والغزو والتوسع. وعلى الرغم من طرح الدول العربية مجتمعة مشروعها للسلام الذي حمل

اسم فاس ومثل ذروة محاولات مختلفة لبلوغ تسوية ما لهذا الصراع، فإن هذه المحاولات جميعا تكسرت على صخرة تشبثت الصهيونية بأهدافها التوسعية، وبممارستها الاستعمار الاستيطاني في الأراضي العربية المحتلة وانتهاجها سياسة عنصرية ضد أهلنا استهدفت سلب هوية جزء منهم في فلسطين المحتلة عام 1948، وتشريد جزء آخر منهم في الضفة والقطاع، وإبادة من تستطيع منهم أينما كانوا.

لقد عبر النضال العربي ضد الغزوة على مدى قرن مراحل عدة، ونضال شعب فلسطين جزء منه ورأس الحربة فيه. ويمكن للنظرة التاريخية الثاقبة أن ترى أنه وصل بداية الصحوة. والصحوة هي حالة تجد الأمة فيها نفسها وقد وعت ذاتيتها بعد أن حددت هويتها، وعرفت عددها على حقيقته بجوانب قوته وضعفه، وصممت على منازلته ووثقت بقدراتها على مقارعته وتحقيق النصر.

تفاعلت عوامل عدة لتصل بنا إلى بداية الصحوة، في مقدمتها تفجر الثورة الفلسطينية تعبيرا عن الانتماء لدائرة الموطن، وبروز عامل العقيدة متفاعلا بعامل الوعي، وتراكم الخبرة. ولعل خير تعبير عن هذه الصحوة هو انتشار روح الاستشهاد. ولنا أن نقف بجلال أمام هذه المقاومة البطولية المتصلة للاحتلال الصهيوني في فلسطين المحتلة وجنوب لبنان.

إن الأيام القادمة تحمل في طياتها نذر هجمة جديدة من التطرف الصهيوني العنصري جعلوا لها عنوانا اسم كاهان وكاخ، ولا يختلف كاهان في جوهره عن رموز الصهيونية العنصرية الأخرى. وأخطار هذه الهجمة تتجاوز الضفة والقطاع إلى أجزاء أخرى من وطننا. ولابد من التصدي لهذه الأخطار بالعمل على مختلف الصعد تعبيرا عن هويتنا وانتمائنا. ولابد لروح الاستشهاد أن تأخذ مداها حتى نصل إلى استعادة الحق والسلام العادل.

* * *

منذ قرنين وقضية التعامل مع الحضارة الغربية مطروحة بيننا. وتفاعل الحضارات خاصية أساسية من خواص الحضارة مستمدة من كيانها الإنساني والاجتماعي. ولهذا التفاعل سلبه ووسائله وجوّه وسننه. وقد حدثت عملية التعامل مع الحضارة الغربية في جو بعيد عن السلم والرضا والحرية، ولم تتوافر له إلى

وقت قريب «الندية» وجاء في وقت كانت الحضارة الغربية فيه تملك قدرة استخدمها الاستعمار الغربي لاحتلال الوطن العربي بالقوة. ولقد برزت مواقف مختلفة إزاء هذا التعامل كما هو الحال دوما عند احتكاك الحضارات وقد فصل الحديث عنها دارسو الحضارات وفي مقدمتهم توبني. وهذه المواقف هي موقف الرفض الانكماشي وموقف القبول الانغماسي وموقف الاستجابة الذي يقرن بين الأصالة والمعاصرة.

يلفت النظر أنه على الرغم من غلبة تيار الاستجابة على صعيد الفكر في وطننا العربي، وعلى الرغم مما ظهر من نتائج سلبية لعمليات التغريب فإن هناك على صعيد الممارسة العملية خللا في التعامل ناجماً عن التقليد واستعارة المنجزات الغربية. ويظهر هذا الخلل بصورة خاصة في مجال «التربية» ويتجسد في نظرة عاطفية للفكر الغربي تتراوح بين الإنكار والانبهار عند الانكماشيين والانغماسيين.

لقد أدرك تيار الاستجابة أن هذه النظرة العاطفية مسؤولة عما نعانيه من «انفعال» في تعامل البعض منا مع الحضارة الغربية. وعمد إلى النظرة العقلية فحدد جوهر الحضارة الغربية التي ترعرع فيها الفكر الغربي، وهو يتكون من مباعث إيمانية ثلاثة ــ كما يقول قسطنطين زريق ــ أولها إيمان بأن العالم الطبيعي هو العالم الحقيقي الذي يجب أن نصرف إليه أذهاننا ونصب فيه جهودنا. وثانيها إيمان بالإنسان بأنه أهم كائن في هذا العالم الطبيعي، بل هو تاجه وغايته. وثالثها إيمان بالعقل. وعرف تيار الاستجابة موقف الفكر الغربي من الحضارات الإنسانية الأخرى، وهو موقف يغلب عليه القول بوحدانية الحضارة الغربية وينكر ما قدمته الحضارات الأخرى. وقد عمد توينبي بخاصة إلى تبين خطأ هذا الموقف الذي فعل فعله في تحديد نظرة الغربي إلى الآخرين وفي سلوكه معهم فتعامل بمقياسين وكال بكيلين. وأحاط تيار الاستجابة بدور هذا الفكر الغربي في العملية الغربية الاستعمارية وممارساتها، فهو قد أوحى بها وأثر في مسارها وتأثر بنتائجها وعمل على تفسيرها وفي كثير من الأحيان على تبريرها. وبرزت فيه تيارات تتحدث عن رسالة الرجل الأبيض سعت إلى فرض المفاهيم الغربية وطرائق الحياة الغربية بقوة على ذوي البشرة السمراء. وواجهت شعوب كثيرة ممارسات غربية في أوطانها تختلف تماماً عن تلك التي تجري في الغرب. وميّز تيار الاستجابة بين تيارات

ومذاهب واتجاهات في هذا الفكر الغربي تتعدد فيه. وتعرف على ما عاناه من أزمات عبرت بمجموعها عن أزمة حادة تعيشها الحضارة الغربية. وقد باتت هذه الأزمة بجلاء بعد تفجر حربين عالميتين، ولم يعد الانشغال بها محصورا بالمفكرين الغربيين بل امتد ليشمل المفكرين عموما وبخاصة بعد أن فشلت عمليات «التغريب» حيثما جرت.

إن وضوح الهوية والانتماء لجيلنا العربي الجديد سيمكن من تدفق تيار الاستجابة، ومعالجة الخلل القائم على صعيد الممارسة العملية وبخاصة في مجال التربية، والتعامل مع الحضارة الغربية على أساس من الندية وفي جو صحي، بحيث نهم بفعالية في معالجة أزمة القيم التي يعاني منها الغرب وفي بناء حضارة العصر.

* * *

إن وضوح الهوية يعني الوفاء بمتطلبات كل دائرة من دوائر الانتماء. وهو يفعل فعله من ثم في سعينا لإيجاد الحقائق الوحدوية في وطننا الكبير وفاء بحق الانتماء للدائرة القومية وبلوغا لهدف التوحيد.

لقد ألح علينا هدف التوحيد منذ أن عانينا من التجزئة. وزاد إلحاحه في عالمنا المعاصر، عالم الكتل الكبيرة والحيتان الضخمة الذي لا مكان فيه للأسماك الصغيرة إلا إذا تكتلت هي الأخرى.

ومرّ العمل للوحدة في تاريخنا الحديث بمراحل. وانتقل من المرحلة العاطفية التي أكدت على الدعوة للفكرة، إلى مرحلة مباشرة تجارب وحدوية محدودة، إلى مرحلة الإجابة عن سؤال كيف وإيجاد الحقائق الوحدوية. والإجابة عن سؤال كيف تعني توفير ركن الفكر النظري في كيفية التنفيذ، ليربط بين ركن معرفة الواقع وبين ركن التنفيذ.

لنا أن نستحضر مثلا يوضح أثر وضوح الهوية على إيجاد الحقائق الوحدوية. وقد تأملت فيه طويلا أثناء زيارتي للشمال الأوروبي للمشاركة في الحوار مع دول الشمال في أكتوبر 1983.

ما هو مفهوم التعاون القائم بين دول الشمال الخمس فنلندا والسويد والنرويج والدنمرك وايسلندا ؟

جاءت الإجابة عن هذا السؤال في خطاب السيد أولف بالمي رئيس وزراء السويد الذي افتتح فيه الندوة، وفي بحث السيد ايلونيمي الفنلندي. وهي «يتلخص المفهوم الصحيح لمضمون تعاون بلدان الشمال في صورة شبكة تضم مجموعة من الشعوب يجمعها قدر كاف من التشابه بحيث تتشابه تطلعاتها، كما يجمعها في ذات الوقت قدر كاف من الاختلافات بما يسمح بأن تكمل كل منها الأخرى. ويسود ما بين التشابه والاختلاف قدر من التوازن من شأنه أن يترك مجالا لكل شعب منها فيما يتعلق بتطلعاته الخاصة. ولكن تشابه المصالح شديد بحيث يجعل التحقيق الأمثل لتلك التطلعات يأتي عن طريق التعاون».

لم يكن هذا المفهوم سائدا من قبل. فقد سادت في مرحلة سابقة فكرة «الاتحاد» الفوري عند العاطفيين ـــ الرومانسيين ـــ من دعاة الوحدة، ثم سادت فكرة توحيد الدفاع والأمن. ولم تلق المحاولات الجادة لتحقيق ذلك أي نجاح. وتعرضت هذه الدول إلى أحداث أخذت كلا منها في اتجاه. فقد ضمت فنلندا إلى الامبراطورية الروسية فترة، ثم استقلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وأدركت في كل الأحوال «أنه لا مفر أمامها وسواء رضيت أم لم ترض، من الاعتراف بأن علاقاتها مع روسيا والاتحاد السوفيتي فيما بعد هي مسألة مصيرية». أما الدنمرك فخضعت منذ عام 1864 لقبول حقيقة أنها ترتبط استراتيجيا مع وسط أوروبا، وأن ألمانيا هي جارها بالحدود، وفي ذلك مشكلتها الأمنية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. أما النرويج التي حققت استقلالها التام عام 1905 وهي دولة بحرية، فقد اهتمت بالتعاون مع جارتها انجلترا. ورأت السويد أن الحجر الأساسي في أمنها يكمن أحيانا مع ألمانيا وأحيانا أخرى مع روسيا. وهكذا اختلفت التوجهات الأمنية الاستراتيجية فيما بينها.

على الرغم من هذا الاختلاف قوى الاعتقاد في هذه الدول بأنها تشكل منطقة ثقافية واحدة. وهكذا تركزت مشروعات التعاون في المحل الأول في المجال الثقافي. كما بدأت محاولات التنسيق بين التشريعات. وكان هذا أمرا منطقيا مفهوما على حد قول السيد ايلونيمي «حيث أن تشابه العوامل الثقافية، من اللغة إلى الدين، ومن المؤسسات السياسية والاجتماعية إلى الفكر القومي (الفلسفة العامة)، كان من القوة بحيث كان كل طرف على فهم تام لما يعنيه الطرف الآخر».

لقد تعرضت هذه الدول في النصف الأول من القرن العشرين لأعاصير الحربين العالميتين الأولى والثانية. وانتهى بها الأمر إلى انتهاج كل منها سياسة أمنية خاصة «نظرا لاختلاف مواقعها الجغرافية، ونظرا لتغير تجاربها التاريخية».

وهكذا أصبحت ثلاث منها هي ايسلندا والنرويج والدنمرك أعضاء في حلف الأطلسي. أما السويد فاتبعت سياسة عدم الانضمام للأحلاف في وقت السلم للاحتفاظ بحيادها عند نشوب الحرب. واما فنلندا اتبعت سياسة الحياد مع الالتزام بمنع استخدام أراضيها في الهجوم على الاتحاد السوفيتي. والأمر المشترك الذي حرصت عليه الدول الخمس في هذه السياسات هو «أن تأخذ بعين الاعتبار مصالح زميلاتها بأوسع قدر ممكن طالما لم يتعارض هذا مع اعتبارات السياسة الأمنية للدولة ذاتها».

استطاعت الدول الخمس على الرغم من اختلاف سياساتها الأمنية أن تجد موضوعات هامة تلتقي عليها في سياساتها الخارجية، وبخاصة على صعيد التعاون الدولي. واستطاعت بنجاح كبير أن تطور تعاونها الثقافي لتصل إلى التعاون البرلماني فيقوم مجلس الشمال الذي له طبيعة استشارية قانونيا ولكنها ملزمة واقعيا. ويقوم مجلس وزراء الشمال وإلى جانبه مجموعة لجان تكفل استمرارية التعاون واتساعه.

لقد أثمر هذا التعاون الوصول إلى سوق العمالة الواحد في هذه الدول، حين وقعت جميعها على اتفاقية 1954 تنص على أن أيا من الدول المتعاقدة «لن تتطلب ضرورة الحصول على تصريح عمل من جانب مواطني أية دولة متعاقدة أخرى». وقد احترم هذا البند على الرغم من فترات التنافس الاقتصادي. وأثمر هذا التعاون اتفاقاً خاصا بالضمان الاجتماعي عام 1955 ينص على أن «تطبق بنود هذا الاتفاق بخصوص كافة المزايا الممنوحة بمقتضى التشريعات الاجتماعية السائدة والبنود التالية المعمول بها في كل بلد فيما يختص بالشيخوخة، وتناقص القدرة على العمل، وحالة المرض والحوادث والأمراض المهنية، والبطالة، والحمل، والسجن، وكذلك المزايا الممنوحة للأطفال والناجين والمحتاجين». وهكذا أوجدت الاتفاقيتان ما يمكن تسميته «مواطن دول الشمال» وتم إلغاء جوازات السفر فيما بين هذه الدول، فأصبح بإمكان هذا المواطن أن يتنقل ويعمل ويقيم في وطنه الكبير كيفما شاء. ولم تلبث أن قامت السوق المشتركة في هذا «الوطن الكبير» فاستوعبت بين

30 ــ 40% من منتجات الدول الخمس، وربطت هذه الدول بأحدث شبكات الاتصال.

واضح أن هذا التعاون المثمر لم يجعل الدول الخمس متماثلة، فهناك اختلافات قائمة فيما بينها حول سياسات اقتصادية وسياسية وأمنية ولكن حقق التكامل فيما بينها.

لقد فصلنا في عرض هذا المثل لننظر إلى واقعنا العربي ونتفكر فيه، وندرس تجاربنا على طريق التعاون والتوحيد. ولا يغيب عن بالنا أن أوضاع وطننا تختلف عن أوضاع بلاد الشمال. ولا يرد في ذهننا أبدا أن ننقل تجارب الآخرين، وإنما ما يرد هو أن ننطلق من التعرف على تجارب الآخرين للتفكير لأنفسنا بأنفسنا في حل قضايانا، لأن أوراق هذه القضايا بأيدينا نحن.

* * *

وبعد.. فإن المسؤوليات الملقاة على عاتقنا كبيرة. وثقتنا أننا باعمال الفكر في قضايانا وبوضوح هويتنا ودوائر انتمائنا وبوفائنا بحق كل دائرة وقيامنا بواجباتنا سنكون قادرين على متابعة انبعاث أمتنا الحضاري ليأخذ مداه، ونحقق أهداف أمتنا.